الفصل الثالث

النقد في القرن الاول والثاني للهجرة

شهد النقد الادبي في اواخر القرن الاول ازدهاراً ملحوظاً سببه فيما يرى الدارسون كثرة الشعراء . وتعدد البيئات الادبية . وعودة العصبية القبلية وشيوع مجالس الادب والغناء في الحجاز خاصة والاسواق الادبية في العراق .

وعلى الرغم من ان هذه الاسباب تختلف قوة وضعفا من بيئة الى اخرى (فقد تضافرت جميعا على خلق روح جديدة في النقد . وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه ورجاله تحليلا فيه عمق وفيه تنوع وفيه اختلاف في الذوق(١) والحكم

ويميز الدارسون ثلاث بيئات ادبية هي بيئة الحجاز وبيئة الشام وبيئة العراق . وقد ازدهر في كل بيئة من هذه البيئات غرض او اكثر من اغراض الشعر العربي . ففي الحجاز ازدهر شعر الغزل بنوعيه العذري والحسي . يمثل النوع الاول الشعراء العذريون ويمثل النوع الثاني عمر بن ابي ربيعة . وازدهر تبعاً لذلك نقد هذا النوع من الشعر ووضعت له اسس ومعايير . وازدهر في الشام شعر المدح بحكم وجود الخلافة فيها وكان وحده كافياً لان يستقطب البلاط الاموي الشعراء . وكان الشعر ينشد في مجالس الخلفاء والامراء ويستمع اليه وتنتقد معانيه .

---

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٤٩ .

وازدهر في العراق شعر الفخر وهو شكل من اشكال المدح . والهجاء . ودار النقد حول هذين الغرضين . يقول د . احمد امين موجزا الصورة التي كان عليها النقد في تلك الفترة (ولئن كان الادب في الحجاز اكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه . والادب في العراق اكبر مظهر له الفخر والهجاء والنقد يتبعه . فالشام اكبر مظهر لادبه هو المديح(٢)

والحديث عن البيئات الادبية والنقدية لايعني انفصالا بينها . وانما ـ كما يقول د . طه الحاجرى ـ تمثل اطواراً من الحياة الادبية مختلفة . لكل منها شخصيته المميزة وملامحه الخاصة به . وان كنا نرى ـ بالرغم من ذلك كله ـ امراً عاماً يلفها جميعا ويطبعها بطابعه . هو تلك الشخصية العربية القوية الخالصة ... وكان لهذه الروح العامة ظواهرها المشتركة من هذه الظواهر ان الادب او الشعر خاصة كان جزءاً ظاهراً من الحياة العامة فيها ... وان الشغف بالبيان الرائع او الفن البياني كان احد الخصائص البارزة القوية للامة العربية ... وقد كان من ذلك ايضاً سيطرة الاسلوب الجاهلي في العبارة الشعرية على هذه الفترة .. فقد كان ذلك مظهراً من مظاهر سيادة الشخصية العربية فيها(٣) .

الغزل :ـ

لقد كان شيوع الغزل في الحجاز بنوعيه اسباب فصلها مؤرخو الادب(١) لانرى حاجة لاعادتها الا فيما نريد الاشارة اليه من كون الانصراف التام الى هذا الغرض ابعد الشعراء عن الخوض في اغراض الشعر الاخرى كالمديح والهجاء والفخر .. الخ . وجعل الشعراء ينصرفون الى تطوير هذا الفن بتأثير مجالس السمر والادب والغناء (لذا اصبحت كثرته مقطوعات قصيرة) وعدل الشعراء الى الاوزان الخفيفة مثل الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج والوافر . كما عدلوا الى مجزوءات الاوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز بل لقد مالوا الى تجزئة الاوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين اشعارها والحانهم وانغامهم .. وليس ذلك فقط ما اثريه الغناء في

---

(٢) النقد الادبي (القاهرة ١٩٦٣) ٤٢٩ .

(٣) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ١٤٩ .

الغزل الذي عاصره . فقد دفع الشعراء الى اصطناع الالفاظ العذبة السهلة حتى يرضوا اذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه اول دفعة نحو تصفية الشعر العربي من الفاظه البدوية الجافة(٥) .

وهذا الذي يراه شوقي صحيح الى حد ما . ولكن ليس الامر كما يتراءى له . فالشاعر الغزل لم يكن ينظم على البحور القصيرة كي يلائم بين شعره والحان المغنين دائماً ولم يكن يختار اللفظ العذب لارضاء اذواق المستمعين . فما اظن الشاعر كان مهتماً كل الاهتمام بالمغنين والمستمعين . انما هي طبيعة شعر الغزل في مجتمع متمدن متحضر مترف تقتضي اللفظ الحسن والبحر القصير . وقد نمضي الى ابعد من ذلك فنقول ان هذا الغزل بمعناه ومبناه حصيلة عوامل عدة منها الاسلام ومنها العاطفة المشبوبة الصادقة ومنها الفراغ .

وبحكم سيادة الغزل توجه اهتمام النقاد الى هذا الغرض ينقدون معانيه وافكاره وصوره على وفق معايير قوامها الذوق المرهف والحس الصادق لكنها لاتخلو من تأثيرات اجتماعية .

فقد انتقد ـ مثلاً ـ عمر بن ابي ربيعة لانه لم يكن يحسن ان يتغزل . ولم يكن يحسن وصف المرأة وقيل عنه (انه لم يرق كما رق الشعراء . لانه ماشكا قط من حبيب هجراً ولا تألم لصد . واكثر اوصافه لنفسه وتشبيبه بها(٦) وان احبابه يجدون به اكثر مما يجد هو بهم . ويتحسرون عليه اكثر مما يتحسر هو عليهم)(٧) وعلى الرغم من ان هذه الرواية تنسب الى المفضل الضبي . الا انها في الواقع تعكس رأي معاصري عمر في شعره مثل ابن ابي عتيق الذي قال(٨) معقباً على بيتي عمر ....

بينما ينعتني ابصرنني
دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قلن تعرفن الفتى ؟ قلن نعم
قد عرفناه وهل يخفى القمر

---

(٥) شوقي ضيف . العصر الاسلامي (القاهرة ١٩٦٣) ٣٤٧ ـ ٣٤٨

(٦) قد تكون تشبيبه بها

(٧) الموشح ٣٣٠ ـ ٣٣١

انت لم تنسب بها . وانما نسبت بنفسك(٩) وقريب من هذا قول كثير وهو شاعر غزل مثله الا انه عذري ، يا اخا قريش . والله والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك ولكنك تخطيء الطريق تشبب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك . اخبرني عن قولك ....

قالت لترب لها تحدثها
لتفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليبصرنا
ثم اغمزيه يا أخت في خفر

اردت ان تنسب بها فنسبت بنفسك . اهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف بالخفر وانها مطلوبة ممتنعة(١٠) .

وواضح ان الموقف النقدي هنا يتمسك بصورة مثالية للمرأة قائمة خارج احساس الشاعر في حين ان الشاعر ملتزم بصورة واقعية قائمة في احساسه هو او في الواقع الذي عاشه فعلا ومن هنا لم يرتض نقاد الحجاز معاني الغزل التي تخرج عن حدود هذه الصورة المثالية وفي هذا يمكن ان نفهم نقد ابن ابي عتيق لكثير في قوله ، ـ

ولست براض من خليل بنائل
قليل ولا راض له بقليل

اذ قال معلقا (هنا كلام مكافيء وليس بعاشق)(١١) لان الشاعر ساوى بين نفسه وحبيبته فارتضى لها مثل ما ارتضاه لنفسه .. كثير بكثير . وهذا موقف ـ او معنى ـ في تصور الناقد غير سليم . لان الشاعر الغزل لايطالب لنفسه بمثل مايطالب به لمحبوبته . وعمر في هذا المعنى كما يقول الناقد نفسه اصدق من كثير لانه قال ،

فعدى نائلا وان لم تنيلي
انما ينفع المحب الرجاء

---

(٩) المرشح ٣٢٠
(١٠) السابق ٢٥٧ ـ ٢٥٨

وقوله ،

ليت حظي كطرفة العين فيها
وكثير منها قليل مهنا(١٢)

وتأمل قول الناقد عندما وصف عمر بالصدق . وما اظنه يريد ان عمر اصدق من كثير انما اقرب تصويرا للمرأة كما ينبغي ان تكون .

وقريب من هذا ايضا مارأته امرأة في بيت كثير .

فما روضة بالحزن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من اردان عزة موهنا
اذا اوقدت بالمندل الرطب نارها

فقالت ، فض الله فاك . ارأيت لو ان ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب اما كانت تطيب ؟ الا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس ،

الم تر اني كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا وان لم تطيب(١٣)

ان شيوع هذه الصورة المثالية في مخاطبة المرأة يدل ـ كما يقول باحث معاصر ـ على اثر الترف والحضارة في الناس ورقة الاحساس الذي تغلغل في نفوس سامعي الشعر(١٤) والناقد في مثل هذا الموقف انما (يميز بين التجربة الشعرية المثالية والواقع الذي حدث او الواقع الذي يريد ان يرسمه الشاعر عن نفسه)(١٥) فيقبل الصورة الاولى ويرفض الثانية .

بمثل هذه الاراء وغيرها كان النقد الحجازي يضع لشعر الغزل اصولا لاينبغي تجاوزها . وقد وجدت هذه الاراء صدى حسنا عند ناقد متأخر هو قدامة بن جعفر

---

(١٢) المصدر السابق
(١٣) المصدر السابق ٣٣٦
(١٤) د . فلوه سلوم . مقالات في تاريخ النقد العربي ٥٥